الفقيه العارف والفيلسوف المُفسّر

العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي

(1321-1402هـ)

إعداد: حمزة فقيه

نحن بين يدي مَعلم إسلامي بارز، شكّلت سيرته التّجسيد النّظريّ والعمليّ لمُقوّمات الشخصيّة الإسلاميّة في البُعدين المعرفيّ والتطبيقيّ، فكان بذلك أحد روّاد ديمومة سيرة أصحاب المعصومين، بل أحد روّاد التّواصل بين المعصومين وبين الأجيال المتعطّشة إلى النموذج السلوكيّ الذي يحفّز الهمم لردم الهُوّة بين النظريّة والتطبيق، ويقدّم نفسه بخصائصها الدّليل القاطع على إمكانيّة مغادرة الإحباط، والتحليق في ذُرى الجهاد الأكبر. وليس الأصغرُ إلاّ بعضُ تجلّياته، وما عدا ذلك جهد، وهو في الغالب غير مشكور، وليس من الجهاد بشيء. وعلى إمكانية المرور بالدّنيا دونما لوثة الإنفصام المعرفيّ، المتمثّلة في العجز عن التّوأمة بين الكتابين التّكوينيّ والتّدوينيّ التي هي إنسانية الإنسان التي فطر الله الناس عليها.

الولادة

وُلد العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي في مدينة تبريز، عاصمة محافظة آذربيجان الإيرانيّة، في التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة 1321 هـ/ 1901م، في أُسرةٍ معروفةٍ بالفضل والعلم والرّياسة. تُوفّيت والدته وهو ابن خمس سنين، وتُوفّي والده عندما بلغ التاسعة من عمره، فكفله وأخاه محمد حسن، الوصيُّ المُعيّن من قِبل والده.

الدّراسة

في التّاسعة من عمره، قصد المدرسة لتعلّم القراءة والكتابة والقرآن الكريم، كما تعلّم فنّ الخط، ثمّ شرع بعد ذلك في دراسة اللغة العربيّة والعلوم الدّينيّة، وأنهى مرحلة السّطوح الحوزويّة عند الأساتذة المعروفين في مدينته تبريز.

يقول رضوان الله عليه عن أيّام دراسته الأولى: «كنتُ راغباً عن الدّراسة، وأمضيت أربع سنوات لا أعي خلالها شيئاً ممّا أقرأه، وذات مرّة شملتني العناية الإلهيّة، فألفيتُ في نفسي ولهاً إلى تحصيل الكمال، وقلّة صبرٍ على مفارقته، وبقي الأمر عليّ هذا النّحو طوال سنيّ دراستي التي استمرّت سبعة عشر عاماً، لم أملّ خلالها من الدّرس، ولم أشعر بالإرهاق... وصار مُرّ الحياة وحُلوُها عندي سيّان... اكتفيت بالحدّ الأدنى من المأكل والنوم وسائر شؤون الحياة، وصرفت باقي أوقاتي للقراءة، ولطالما بقيت أقرأ من الليل حتى طلوع الفجر، لا سيّما في فصلَي الصيف والربيع...».

سنة 1924م قصد السيّد الطباطبائي النّجف الأشرف لإكمال دراسته الحوزويّة، وبقي هناك إحدى عشرة سنة

العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي

يحضر دروس الفقه والأصول عند كبار العلماء، أمثال: آيات الله النائيني وأبي الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين الكمباني، ونال في فترة وجيزة إجازة الإجتهاد من الميرزا النائيني، وإجازات في الرّواية من الشيخ عباس القميّ وآية الله العظمى السيد البروجردي.

ولم يكتف رضوان الله عليه بدراسة الفقه والأصول، بل واصل دراسته في العلوم الأخرى، مثل: علم الرجال، والفلسفة، والعرفان، والأخلاق، والرّياضيات، والحساب، والجبر، والهندسة المستوية والمجسّمة، وغيرها.

العودة إلى تبريز

في حدود العام 1935م عاد السيد الطباطبائي إلى مدينة تبريز، وأخذ يلقي الدروس فيها مدّة عشر سنوات. ويُنقل أنّه

رضوان الله عليه خلال إقامته في تبريز كان يشتغل بالزّراعة، ولم يعتمد طول حياته الشريفة في تيسير أمور معاشه على الحقوق الشرعيّة، بل كان يعتمد في سَدِّ احتياجاته على واردات قطعة أرض زراعيّة ورثها عن أبيه.

الهجرة إلى قم المقدّسة

قُبيل انتهاء الحرب العالميّة الثانية عام 1945م، اضطُرّ السيد الطباطبائي إلى مغادرة تبريز بسبب الاضطرابات التي حدثت في محافظة آذربايجان على خلفيّة الحرب الدّائرة، فقصد مدينة قم المقدّسة. وتزامن وصوله إليها مع نهضةٍ علميّة تصدّى لها آية الله العظمى السيد حسين البروجردي، وكانت هذه النهضة بحاجة إلى من يرفدها. ولأجل ذلك، اكتسى حضور العلاّمة الطباطبائي إلى قم أهميّة خاصة في تبلور تلك النهضة الفكريّة التي شهدتها بدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين، وقد تزامن حضوره أيضاً مع موجة من الأفكار المادّيّة التي كانت تغزو المسلمين، والفلسفات الغربيّة التي انبهر بها بعضُ أبنائهم، فشرع في تدريس الفلسفة الإسلاميّة من كتاب «الأسفار الأربعة» لصدر المتألّهين الشيرازي، وبعده كتاب «الشفاء» لابن سينا، على الرّغم من العقبات التي واجهته، حيث كان يُقيم مجلس الدّرس في سرداب منزله يومَي الخميس والجمعة، وقيل إنّه كان ينتقي تلامذته الذين لم يتجاوز عددهم عشرة أشخاص، في بدايات الأمر.

مؤلّفاته

يبرز اهتمام العلاّمة الطباطبائي بالتصدّي للغزو الفكري السائد آنذاك، من خلال تتبّع عددٍ من مؤلّفاته التي عالجت إشكاليّات كانت ولا تزال مدار البحث والنقاش. أبرز هذه المؤلّفات كتابه «أصول الفلسفة» الذي عالج ظاهرة الانجراف وراء تيار الفلسفة الغربية، وكتاب «المرأة في الإسلام» الذي فضح فيه استمرار الظلم الأوروبيّ القديم للمرأة، وتواصله من خلال الظلم الحديث لها، وكتاب «نظريّة السياسة والحكم في الإسلام»، الذي يُوضح على صِغره مدى إحاطة العلاّمة الطباطبائي بعصره حيث عالج فيه مسألة الحكم معالجةً أصيلةً، مقارناً بين الإسلام وبين الديمقراطيّة والديكتاتوريّة اللّتين يعتبرهما وجهين لعملة واحدة.

كما حرص السيّد رضوان الله عليه على إيصال الفكر الإسلامي الأصيل إلى أوروبا، كما في الحوارات التي بدأها عام 1958م واستمرّت طوال عشرين عاماً مع المستشرق الفرنسي هنري كوربان الذي دوّن هذه الحوارات ونشرها في بلاده كما نشر الفكر الإماميّ، ووصل الأمر به إلى أن يقرأ الصحيفة السّجادية ويبكي.

إلاّ أنّ أبرز مؤلّفات العلاّمة الطباطبائي ـ التي ناهزت الأربعين،

الفقيه العارف الكبير السيد علي القاضي أبرز أساتذة العلامة الطباطبائي

ما خلا المخطوطات غير المطبوعة ـ سِفره القيّم «الميزان في تفسير القرآن»، وقد تميّز هذا التّفسير بأنّه يختزن قوّة علميّة متعمّقة في البحث، وبالرّجوع إلى القرآن نفسه بتفسير بعضه ببعض، والنّأي به عن الأقوال وعن الآراء التي ترجع إلى تأويلٍ آياته حتى توافق نظراً علميّاً، أو تقليداً مذهبيّاً، أو أصلاً كلاميّاً، أو فلسفة خاصة، أو تجديداً حديثاً، إلى غير ذلك ممّا تلحظه بعض التفاسير القديمة والحديثة.

وممّا قاله رضوان الله عليه في بيان منهجه: «نفسّر القرآن بالقرآن، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدّبر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخّص المصاديق، ونتعرّفها بالخواصّ التي تُعطيها الآيات، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ النحل:89، وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكلّ شيء، ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ البقرة:185، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ النساء:174، وكيف يكون القرآن هدىً وبيّنة وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون، ولا يكفيهم في احتياجهم إليه، وهو أشدّ الاحتياج؟

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت:69، وأيّ جهادٍ أعظم من بَذْلِك الجهدَ في فهم كتابه، وأيّ سبيلٍ أهدى إليه من القرآن؟».

ومن أبرز مزايا هذا التّفسير، أنه يُعنى بعد شرح الآيات

وبيان معناها، ببحث الموضوعات الهامّة، والقضايا التي كثيراً ما شغلت الأذهان في القديم والحديث، بحثاً مستمّداً من آيات القرآن نفسها، كما أنه بحث بحثاً جيداً في إعجاز القرآن من جهاته المختلفة، في بلاغته وقوّة أسلوبه، وتحدّيه بالعلم، وبالإخبار عن الغيب، وبمن أنزل عليه القرآن، وبعدم الاختلاف فيه.

ثم تحدَّث عمّا يثبته القرآن من قوانين وسُنن كونيّة، كتصديقه لقانون العليّة العامّة، وإثباته ما يخرق العادة، ومن كون المؤثّر الحقيقيّ في الأشياء بتمام معنى الكلمة ليس إلاّ الله عزّ سلطانه، ومن أنّ القرآن يعدُّ المعجزة برهاناً على صحّة الرسالة لا دليلاً عامياً، إلى غير ذلك من الجزئيّات الهامّة التي تضمّنها هذا البحث الدقيق.

أساتذته

سبقت الإشارة إلى جملةٍ من أساتذة العلامة الطباطبائي، وجلّهم من أكابر الإماميّة وأعلام الحوزة رضوان الله عليهم أجمعين. فقد درس الفلسفة عند السيد حسين بادكوبي، والفقه والأصول عند العَلمين السيد محمد حسين الأصفهاني والميرزا محمد حسين النائيني، والرّياضيات عند السيّد أبوالقاسم الخونساري، وعلم الرّجال عند آية الله حجت كوهكمري. إلا أنّ أبرز أساتذته على الإطلاق، وأبعدهم أثراً في نفسه ـ منذ لقائه حتى وافت السيد الطباطبائيّ المنيّة ـ هو العارف الرّبانيّ السيد علي القاضي. ولا أدلّ على تأثير السيد القاضي في صياغة شخصية تلميذه التبريزيّ، من مقولة السيد الطباطبائيّ نفسه: «كلّ ما عندنا من السيّد القاضي»!

وللّقاء الأول بينهما قصّة تحمل الكثير من المعاني والدّلالات: ذات يوم، وفي السّوق الكبير في النّجف الأشرف، عند مدرسة الصدر الواقعة في أوائله من الجهة الشرقيّة، رآى آية الله العظمى بحقّ السيد علي القاضي، هذا الطالبَ اليافع، فوضع يده على كتفه وقال له: «يا بنيّ، إذا أردتَ الدّنيا فصلِّ صلاة الليل، وإذا أردتَ الآخرة فصلّ صلاة الليل»!! فبذر بهذه الكلمات في قلبه المحمديّ، تلك البذرة التي كانت تفسير الميزان، والفلسفة، والفقه، والأصول، والإنفتاح الواعي والملتزم على كلّ نبضة عرق وخفقة فؤاد في أربع رياح الأرض.

السيد أبو الحسن الأصفهاني قدس سره

الميرزا النائيني قدس سره

تلامذته

وُفّق السيد الطباطبائي رضوان الله عليه لتخريج جيل من العلماء والمفكّرين الذين لعبوا أدواراً فكريّة وسياسية رفيعة جداً، أمثال آية الله الشهيد مطهّري الذي له تعليقات وشروح على عدد من مؤلّفات أستاذه السيد الطباطبائي، وآية الله الشهيد بهشتي، وآية الله السيد محمد حسين الطهراني، والسيد موسى الصدر أعاده الله سالماً، وآية الله محمد تقي مصباح يزدي، وآية الله جوادي آملي، وآية الله حسن زاده آملي وآخرين.

ينقل عنه بعض تلامذته أنّه كان يقول: «لا تنادوني بكلمة أستاذ، بل أنا وأنتم جئنا إلى الدّرس لغرض العمل سويّة، للتعرّف على حقائق الإسلام».

وكان رضوان الله عليه يؤكّد في دروسه بحوثه على نقطة مهمّة، وهي أنّ الدّين والعقل لا يفترقان، وأنّ علينا الرّجوع إلى القرآن الكريم والوحي، في الحالات التي تعجز فيها عقولنا عن التّوصل إلى الحقائق.

ملامح في البُعد الرّوحي

أ- الجِدّ في خشية الله:

نقرأ في دعاء كميل: «وَهَبْ لي الجِدّ في خَشيتك، والدّوامَ في الإتصال بخدمتك».

من أبرز ملامح البعد الروحي في العَلَم المقدس، أنّه كان ممّن وهبهم الله تعالى الجِدّ في خشيته. يُروى أنّه رضوان الله عليه التزم أكثر من أربعين سنة بأن لا يتّكيء أمام جليس، عملاً بسنة رسول الله ﷺ. يقول تلميذة السيد الطهراني: «منذ ما يقارب الأربعين عامًا، لم يُشاهد أن اتّكأ على مسند في المجلس، كان دائماً يحتفظ بفاصلة بين ظهره والجدار تأدّباً واحتراما للجالسين، وما أمكنني مرّة أن أجلس مكاناً أدنى من مكانه، على الرّغم من كثرة تردّدي على مجلسه. كنت أدخل عليه فأمتنع من الجلوس في مكان أرفع أو في مستواه، وكان يمتنع هو عن الجلوس أيضاً، فنبقى واقفَين حتى يقول ممازحاً: إذن ينبغي أن نجلس عند عتبة الباب أو خارج الحجرة!».

وينقل السيد الطهراني أيضاً، أنّه كثيراً ما كان يستشهد بهذه الأبيات الآتية ـ أوردها أيضاً في «تفسير الميزان» ـ على طريق الفناء «في الله»، والخروج من ظلمات الـ«أنا»:

روت لي أحاديثَ الغرام صبابة
بإسنادها عن جيرة العلَمِ الفردِ
وحدثني مَرُّ النسيم عن الصَّبا
عن الدَّوح عن وادي الغضا عن ربى نجدِ
عن الدمع عن عيني القريح عن الجوى
عن الحزن عن قلبي الجريح عن الوَجدِ
بأنّ غرامي والهوى قد تحالفا
على تلَفي حتى أُوسّد في لحدي

وخشية الله تعالى، تجلّت في جميع مناحي حياته الشريفة العامرة بتقوى الله، فقد طوى مراحل عالية في العرفان، والسَّير والسلوك المعنويّ، وكان دائم الذّكر والدّعاء مشغولاً بهما حتى وهو في الطريق لإلقاء الدرس. وكان مواظباً على أداء المستحبات، وله في شهر رمضان المبارك برنامج متنوّع موزّع بين العبادة، والتأليف، وقراءة القرآن، وقراءة دعاء السحر الذي كان يهتمّ به اهتماماً خاصّاً، حيث كان يقرأه بحضور أفراد عائلته.

ب– لم أفعل شيئاً

ينقل أخوه السيد محمد حسن أنّه علم بنحوٍ ما أنّ والدهما المتوفّى عاتبٌ على السيد محمد حسين لأنّه لم يُهده شيئاً من ثواب تأليفه لتفسير الميزان، فكتب إلى أخيه بذلك.

يقول السيد الطباطبائي بهذا الصدد: «الحقيقة أنّي لم أُهدِ إلى روح والديّ شيئاً من ثواب التفسير لأنّي لم أفعل شيئاً، إنّه توفيق من الله تعالى، ولكن أمام طلب والدي قلت: ألّلهمّ إن كان لي شيء، فهو بين والديَّ مناصفة. وقبل أن أكتب إلى أخي الذي كان في تبريز، جاءتني رسالة منه يخبر فيها بأنّ الوالد يبلغك شكره، فقد وصلت الهديّة».

وذات مرّة، أشاد أحدهم بتفسير الميزان، فقال له العلاّمة: «كلامك هذا يدفعني إلى العُجْب، والعُجْب يُفقِد العملَ قَصد القربة لله والإخلاص له».

ج– يمشون على الأرض هوناً

كان السيد الطباطبائي قدّس سرّه مدرسةً في التّواضع، بل يجدر لدى الحديث عنه، البحثُ عن مفردة غير التواضع، فهي تُوحي بترفّع استدعى التنبّهُ له التّحدرَ منه برفق، ولم تكن لتلمس فيَّ السيد الطباطبائي شيئاً من ذلك. أنقول التّرابيّة..بمعناها الشائع؟ كلا..وإن قاربنا..

العلاّمة الطباطبائي و معه الشهيد مطهري

بل نقول: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا..﴾ الفرقان: 63.

يقول تلميذه السيد محمد حسين الطهراني: «كنت كلّما تشرفت بخدمته ـ ولا استثناء ـ أنحني لأُقبّل يده، فيُخفي يده تحت العباءة، ولفرط ما يستولي عليه الحياء والخجل، بحيث يُسقط في يدي».

يضيف: «كنت أراه وقد تقدّم به العمر، يمشي وحده إلى حرم المعصومة. وكان يفتح الباب بنفسه لمستقبليه، ويُصرّ على وداعهم إلى الباب. وكان يزور العلماء القادمين إلى قم بسيارة الأجرة، وكذلك كان السيد المرعشي رضوان الله عليهما».

ومهما عدّد العارفون بسيرته المحمّديّة العلويّة العطرة في هذا الباب، فهو دون أن يعطي صورة حقيقيّة عن تلك البراءة الفريدة، وذلك الإسترسال الفذّ..اللّذين هما من خصائص الواصلين..

وفاته

تُوفّي العلاّمة الطباطبائي في الثامن والعشرين من شهر محرم سنة 1402 هـ/ 1982م، بعد ما قضى جُلّ حياته في خدمة العلوم الإسلاميّة بصورة عامة، وعلوم شيعة آل البيت عليهم السلام بصورة خاصة، ودُفن إلى جوار مرقد السيدة المعصومة، فاطمة بنت الإمام الكاظم عليهما السلام، في مدينة قم المقدسة.

وقد قال فيه الإمام الخميني قدّس سرّه: «كان العلامة من كبار علماء الإسلام ومن الفلاسفة البارزين في العالم الإسلامي، ويُمكن اعتباره مفخرة من مفاخر الحوزات العلميّة، فقد كان لتأليفاته القَيِّمة في التفسير، والفلسفة، والفقه، والأصول، وغيرها، دور مهم في خدمة العلوم الإسلاميّة».